



أثبتت تجربتا تونس 2012 والسودان 2019 أن المخرج السلمي الوحيد للأزمة السياسية التي دشنها ثورات الشعوب العربية هو التفاهم بين جزء من النخب الحاكمة، التي تحكم بالدولة ومؤسساتها وأجهزتها، والقوى السياسية والمدنية الممثلة للمجتمع، على صيغة للخروج من المواجهة، والاتفاق على مرحلة انتقالية هدفها الرئيس قيادة البلاد نحو انتخابات حرة ونزيهة، يختار الشعب بمقتضاها ممثليه الشرعيين، ومن ثم تدشين حياة ديمقراطية سليمة تحسم قضية تداول السلطة، وتضمن الاستقرار السياسي، وتوجه طاقات المجتمع نحو الإنتاج والإبداع والتقدم المادي والعلمي والثقافي. وهذا ما أطلق عليه اسم طريق الحل السياسي للتحدي التاريخي الذي فتحته دورة الانتفاضات الشعبية في منطقة عربية تأخرت عقوداً عن ركب التقدم المدني والحضاري العالمي.

وفي المقابل، في جميع الحالات التي أخفقت فيها الشعوب في سلوك هذا الطريق، وفشلت في فتح الحوار بين الأطراف الرسمية والشعبية، للبحث عن حل وسط تلقي فيه إرادة الجمهور الثائر ومصالح الحفاظ على الدولة والنظام العام، وبالتالي على البنية المؤسسية والأجهزة البيروقراطية والعسكرية والأمنية الرئيسية للدولة، كانت النتيجة مأساوية، تراوحت بين ثلاث حالات جميعها كارثية. **الأولى**، الليبية التي انهارت فيها الدولة تماماً، وتفككت وأصبحت البلاد فريسة للصراع بين مجموعات مسلحة لكل منها مشروعه الخاص، وهي تعمل أكثر من ذلك تحت وصاية الدول الأجنبية ومساعدتها. وهذا هو الوضع أيضاً في اليمن الذي يختبط في حرب داخلية وإقليمية، لا أفق واضح للخروج منها بعد. **الثانية**، الحالة المصرية التي ما إن أدت فيها أول انتخابات نظامية إلى نجاح ممثل المعارضة في الانتخابات الرئاسية، حتى ارتدت النخب الحاكمة، التي خشيت على مصيرها ومصالحها، على أعقابها، واختارت الانقلاب على الديمقراطية، بذرية مقاومة خطر سيطرة

القوى الإسلامية. وكان من الطبيعي أن تؤسس هذه النخب التي غدرت بالتزاماتها تجاه الشعب والقضية الديمقراطية حكماً سلطانياً أكثر تطرفاً من سابقه. إذ لم تعد تكتفي باستعادة السيطرة بالقوة وتشديد القبضة الأمنية على المجتمع، وإنما تهدف، وبعد من ذلك، إلى القضاء على إرث الثورة، واجتثاث أفكارها وتنظيماتها ونخبها من الجذور، حتى أصبح حكم الرئيس السابق حسني مبارك يبدو أمام النظام الجديد "ديمقراطياً"، على الرغم من فساده المدوّي.

**الحالة الثالثة**، هي الأسوأ، وهي السورية التي حافظ فيها النظام، بفضل الدعم غير المشروط لحلفائه الدوليين، على تماسته ووحدة أجهزته ونخبته القائدة أمام الانتفاضة الشعبية، وصمم، منذ البداية، على رفض أي مقاربة سياسية، وقطع دابر ما أطلق عليها اسم المؤامرة الكونية على البلاد، والإصرار على الانتصار العسكري، مع شعار لا يمكن أن يكون أكثر وضوها وتعبيراً: الأسد أو نحرق البلد. وكانت النتيجة، بدل الانتقال السياسي الذي كان يحلم به الجمهور المتطلع إلى التغيير نحو حكم ديمقراطي، يضمن احترام القانون وحقوق الأفراد وحرياتهم، ويحافظ، في الوقت نفسه، على مؤسسات الدولة، وبالتالي على أطراها الرئيسية وبنياتها الأساسية، شرعت أبواب البلد للتدخلات الأجنبية، وصارت مسرحاً تفرغ فيه هذه الدول نزاعاتها، وتدرّب فيه جيوشها وتجرب أسلحتها. وفيما وراء استمرار النظام وتعزيز أجهزته الأمنية لم يحصل تفكك الدولة، وتقويض مؤسساتها السياسية والاقتصادية وسلطتها السيادية لصالح زعماء المليشيات المحلية والأجنبية، الأهلية والرسمية، فحسب، وإنما تفكّك المجتمع أيضاً، ولم يعد للسوريين هوية جامعة، ولا مشروع مشترك، ولا إطار يوحد جهودهم، أو يعكس إرادتهم السياسية. تحولت سوريا بعد سنوات قليلة من الحروب المتقاطعة إلى مسرح للصراعات الإقليمية والدولية، وقد فيها السوريون أي موقع يسمح لهم بالمشاركة في تقرير مصيرهم، بل أكثر من ذلك، فقد السوريون أنفسهم البوصلة الوطنية، فصار كل فريق، بل كل فرد، يبحث لنفسه عن مخرج وموطن بديل وموقع يضمن له المحافظة على البقاء والعيش في أي شروط ممكنة، فصار نصف شعبها لاجئاً من دون حقوق في أرضه، ونصفه الآخر نزيل المخيمات، أو تحت ظلال أشجار الزيتون المدفوعة الثمن.

أمام تلاعبات الدول المختلفة بمصيرهم، وفشل المنظمات الدولية السياسية والإنسانية في تقديم المساعدة في أي مستوى أو ميدان لمساعدتهم على استعادة قرارهم في وطنهم، ونتيجة هشاشة مؤسساتهم المدنية، وخبراتهم التنظيمية والسياسية، إن لم نقل انعدامها، يعيش السوريون اليوم حالةً من الضياع الفكري والسياسي والاجتماعي معاً، فيبعد أن فقدوا المبادرة، وأصبح أعداؤهم هم المتحكمين بسير العمليات العسكرية والدبلوماسية، لم يبق لهم سوى رد الفعل، ولم يعد أكثرهم يرى مخرجاً قريباً من دون التعلق بأذنيال هذه الدولة الأجنبية أو تلك. ولم يعد بمقدراً قادتهم، أو من هم في حكمهم، معرفة أين يتوجهون، ولا كيف يستطيعون تنظيم أنفسهم، وتشكيل قوى سياسية تجمع جهودهم، ولا الوسيلة لتحقيق الحد الأدنى من التفاهم على أي مبادرة سياسية أو عسكرية. وعلى الرغم من أن سياسييهم ومثقفيهم، أو القسم المنخرط في الصراع من بينهم، لا يكفون عن التذكير بضرورة تطبيق قرارات الأمم المتحدة، ويعلنون تمسكهم بالحل السياسي بمقتضى هذه القرارات، إلا أنهم لا يذالون عاجزين عن تنظيم أي جهد جماعي فعال لدفع المجتمع الدولي إلى التخلّي عن استقالته السياسية، والسير في هذا الطريق. وحصيلة ذلك كله أن قسماً كبيراً من نخب المعارضة التي لا تزال منخرطة في الصراع لا ترى أن لديها خياراً آخر سوى واثشنة أو جنيف، عليه يفتح بعض الآفاق المسدودة تماماً اليوم. ويكرّس القسم الآخر من المعارضة جهده من أجل الخروج من الفوضى والتشتت الضارب في البحث عن قيادة افتقدت إليها الثورة خلال ثماني سنوات، أو بالأحرى على تحصيل التوافق على اسم قائد/ زعيم ملخص لأهداف الثورة ومسجد لإرادة جمهورها، يمكن أن يجمع عليه المعارضون، يتحدى

مشاريع قوى الاحتلال الأجنبية، ويجسد روح السيادة السورية المنتهكة في مواجهة روح التبعية والاستسلام السائد في مؤسسات المعارضة الحالية. أما القسم الثالث فهو المتعلق بحال الغيب، بالمعنى الحرفي للكلمة، ممن يتضرع إلى الله صبح مساء، ليضرب بإرادته التي لا ترد الظالمين بالظالمين، ويخرج من بينهم أنصاره سالمين. بينما غسل القسم الرابع يده تماما من الثورة وشعاراتها، وسلّم بأن سوريا انتهت، وليس لها أي أمل في الخلاص، لا اليوم ولا غدا، ولم يترك له الإحباط والشعور الحارق بالهزيمة سوى تسويق صفة نشطائها، والشماتة برجالاتها. هكذا يحول الخوف من الخسارة حياة السوريين المنخرطين في الثورة وأنصارها إلى جحيم، يسرّعه تبادل الاتهامات والاتهامات المضادة، ويصبّون جام غضبهم واحدهم على الآخر، ويتنازعون في ما بينهم جرعة الأمل الضئيلة المتبقية. يكاد بأسمهم على بعضهم يكون أشدّ من بأسمهم على عدوهم الذي أسلم قياده لحماته، واطمأن إلى البقاء في ظل الاحتلال.

## (2)

والحال، لن يخرج من المداولات الدولية أي حلٍ يحقق الحد الأدنى من تطلعات الشعب الذي ما يزال يضحي منذ ما يقارب العقد من السنوات من دون حساب. لن يقبل الروس أي حلٍ تفاوضي يفضي إلى فتح ثغرة تهدد بقاء نظام الاستبداد والقمع الشمولي القائم، وتحمل إمكانية خروج سوريا والسوريين عن السيطرة. وسوف تستمر موسكو في قضم الواقع التي تحملها المعارضة، بتطبيق سياسة الأرض المحروقة، لفرض إرادتها وإجبار السوريين على القبول بتأهيل النظام القائم، بوجود الأسد أو من دونه. ولن يتجاوز المجتمع الدولي والغرب الديمقراطي في موقفه من موسكو سقف العقوبات والضغوط الاقتصادية والدبلوماسية، كما أعاد تذكيرنا بذلك منذ أيام (الشرق الأوسط 22/8/2019) المبعوث الأميركي لشؤون الشرق الأوسط، جيمس جيفري، في حديثه أخيراً للصحافة. وأكثر ما يمكن توقعه من هذا المسار السياسي الذي لم يعد يعرف رأسه من ذنبه هو قيادة البلاد نحو ما تسمى "انتخابات نزيهة" تحت إشراف الأمم المتحدة، لن ينتج عنها سوى التجديد الكاريكاتوري لشرعية الأسد وسلطته الزائفة. كما أن مساعي آخرين لاختيار قائد للثورة من خلال تصويت مموقع ومجموعات التواصل الاجتماعي لن ينجح في التوافق على اسم، وإذا نجح فلن يحل مشكلة القيادة، وإنما سوف يعقدها، أكثر لأن غيابها لم يرتبط بالافتقار لشخصيات وأسماء مخلصة وبازة، ولكن لأنعدام الرأي الموحد والرؤية المشتركة ووضوح الأهداف. وبالتالي غياب الأجندة الواحدة أو الجامعة عند جمهور الثوار والمعارضة أنفسهم. ومن المستبعد أن يشملنا الله برحمته، ويؤيدنا بجندٍ من عنده لا نراها، بينما نحن على ما نحن عليه من التناقض، بل الكراهية المتبادلة التي يغذّيها في ما بيننا عجزنا عن استيعاب اختلافنا وتجاوزها، ومن الجحود الذي يطبع علاقتنا، فيجعل الواحد منا لا يرى في أخيه صديقاً أو شريكاً، ولكن منافساً أو عدواً أو مرتدًا عن العقيدة، ينبغي تجريده من أي صفاتٍ أو قيم إيجابية، وإذا أمكن تحبيده، ورفض الاعتراف بدوره وأهليته مهما كانت. وهذا ما يجعل من المراجعات الشكلية الجارية مناسبةً للكشف عن العيوب والمثالب الشخصية، وتوزيع الاتهامات وتعيم جو من الريبة وعدم الثقة والتشكيك المتبادل عند أغلبيةٍ من جمهور الثورة وأنصارها.

هكذا لم يتتطور وضع المعارضة، ولا وضع النظام أو ما تبقى من عوارضه، منذ التدخل الروسي عام 2015، حين بدأ تحديد المعارضة بالقوة العسكرية المفرطة، والتحايل على المقاتلين باسم المصالحات، والتبيشير بالحل السياسي الروسي، بينما فرض على العصابة الحاكمة الانصياع لإرادة سلطة الانتداب الروسي الجديدة ومخططاتها، والعمل على استراتيجيتها. من هنا، يجد السوريون أنفسهماليوم، معارضين وموالين، معلقين في الفراغ، أو بالأحرى في حالة انعدام الوزن، مجردين من أي إرادة وقرار، لا يملكون من أمرهم شيئاً. فمن جهة أولى، انتهى النظام القديم، ولم يعد بالإمكان إعادة تأهيله، وأنهارت معه قواعد عمله وقيمته وتقاليده، ولم يبق لدولة الأسد إلا هويتها الجديدة ورقة توت تخفي عورة السلطة الأجنبية المحتلة، فقد

تحطمـت كما تحطمـ سفينة ضلـت طـريقـها، وارتـطمـت بالـصخـورـ، بـسبـبـ حـماـقةـ قـبطـانـهاـ الـذـيـ اـخـتـارـ أـنـ يـكـونـ مـاسـحـ أحـذـيةـ لـدىـ السـيـدـ المـحـتلـ عـلـىـ أـنـ يـرـىـ أـبـنـاءـ شـعـبـهـ أـسـيـادـاـ وـهـ وـاـحـدـ مـنـهـ. وـمـنـ جـهـةـ ثـانـيـةـ، لـمـ نـجـحـ يـعـدـ فيـ تـجـمـيعـ عـنـاصـرـ النـظـامـ الـبـدـيـلـ الـذـيـ يـسـتـمـدـ شـرـعـيـتـهـ مـنـ إـرـادـةـ الـشـعـبـ، وـالـتـيـ نـحـتـاجـ إـلـيـهـ لـإـعـادـةـ بـنـاءـ سـفـينـةـ الـدـوـلـةـ السـوـرـيـةـ المـحـطـمـةـ وـالـغـارـقـةـ. وـكـمـ يـشـكـلـ هـذـاـ فـرـاغـ الـثـغـرـةـ الـتـيـ تـسـتـمـدـ مـنـهـ سـلـطـةـ الـاـنـتـدـابـ الـأـجـنـبـيـ قـوـتـهـ، يـمـثـلـ بـالـنـسـبـةـ لـلـسـوـرـيـينـ حـالـةـ الـعـجـزـ بـمـاـ تـعـنـيـهـ مـنـ اـنـدـاعـ الـأـفـاقـ، وـغـيـابـ الـفـرـصـ وـالـخـيـارـاتـ، وـبـالـتـالـيـ التـخـبـطـ وـالـضـيـاعـ وـالـافـقـارـ لـلـقـدـرـةـ عـلـىـ التـوـجـهـ وـالـعـمـلـ الـمـشـترـكـ، وـتـجـمـيعـ الـقـوـىـ وـتـوحـيدـ الـجـهـودـ.

من أين يمكن لنا أن نبدأ العمل في هذا الوضع البائس وتلك الشروط الجائرة إذن؟

(3)

الجواب: من الكارثة ذاتها، فمن رحم الثورة المغدورـةـ، وـمـنـ الدـمـارـ وـالـخـرـابـ وـالـمـوـتـ الـذـيـ قـادـتـ إـلـيـهـ حـربـ الإـبـادـةـ الـجـمـاعـيـةـ الـتـيـ نـظـمـهـاـ حـكـمـ جـائـرـ عـلـىـ شـعـبـ مـجـرـدـ مـنـ السـلـاحـ، وـمـفـتـقـرـ إـلـىـ أـيـ حـمـاـيةـ سـيـاسـيـةـ أـوـ قـانـونـيـةـ، خـرـجـ وـيـخـرـجـ كـلـ يـوـمـ مـنـ بـيـنـ أـنـقـاضـ دـوـلـةـ الـأـسـدـ الـمـنـهـارـةـ وـالـمـفـكـكـةـ وـالـمـحـتـلـةـ، مـجـمـعـ سـوـرـيـ جـدـيدـ مـسـتـقـلـ عـنـ الـمـجـمـعـ الـعـبـودـيـ الـقـدـيمـ، وـمـتـحـرـرـ أـكـثـرـ فـأـكـثـرـ مـنـ قـيـودـهـ وـقـيـمـهـ وـرـهـانـاتـهـ. وـهـوـ لـاـ يـقـتـصـرـ عـلـىـ الـمـلـاـيـنـ الـذـيـنـ غـادـرـوـاـ سـوـرـيـةـ لـاجـئـينـ، أـوـ نـازـحـيـنـ وـمـشـرـدـيـنـ، وـلـكـنـهـ يـشـكـلـ الـعـدـيدـ مـنـ أـوـلـئـكـ الـأـفـرـادـ الـذـيـنـ خـابـ أـمـلـهـ بـالـنـظـامـ، وـدـمـرـتـ أـسـسـ حـيـاتـهـمـ الـطـبـيـعـيـةـ، فـيـ مـنـاطـقـ سـيـطـرـةـ الـنـظـامـ وـخـارـجـهـاـ، فـقـدـ خـرـجـ هـؤـلـاءـ جـمـيـعـاـ مـنـ قـفـصـ الـعـبـودـيـ الـحـدـيـدـيـ الـذـيـ حـبـسـهـ فـيـ الـنـظـامـ، وـمـنـ تـحـتـ سـلـطـتـهـ الـمـعـنـوـيـةـ وـالـسـيـاسـيـةـ، وـهـمـ يـنـتـشـرـوـنـ الـيـوـمـ فـيـ مـخـلـفـ بـقـاعـ الـأـرـضـ، يـعـيـدـونـ بـنـاءـ وـعـيـهـمـ وـتـأـهـيلـهـمـ الـعـلـمـيـ وـالـمـهـنـيـ وـالـإـنـسـانـيـ، فـيـ شـرـوـطـ حـيـاةـ مـنـاقـضـةـ تـامـاـ لـلـتـيـ عـاـشـوـهـاـ فـيـ الـمـاـضـيـ.

لـقـدـ اـنـتـهـىـ الـحـصـارـ الـذـيـ كـانـ يـفـرـضـهـ الـنـظـامـ عـلـىـ الـشـعـبـ بـأـكـمـلـهـ، لـيـمـنـعـ عـنـهـ النـورـ وـالـرـؤـيـةـ وـالـتـفـكـيرـ الـمـشـترـكـ وـالـتـوـاـصـلـ. وـعـلـىـ الـهـوـامـشـ وـفـيـ الـمـغـتـرـيـاتـ وـدـاـخـلـ مـخـيـمـاتـ الـلـاجـئـيـنـ وـصـفـوـفـ الـمـشـرـدـيـنـ وـالـمـنـكـوبـيـنـ، وـفـيـ مـئـاتـ الـجـامـعـاتـ الـعـالـمـيـةـ الـتـيـ يـدـرـسـ فـيـهـاـ عـشـرـاتـ آـلـافـ الـطـلـبـةـ السـوـرـيـنـ فـيـ كـلـ الـاـخـتـصـاصـاتـ، يـتـكـونـ مـجـمـعـ سـوـرـيـ جـدـيدـ، خـارـجـ عـنـ سـلـطـةـ الـنـظـامـ وـنـقـيـضـ لـهـاـ. وـعـنـدـمـاـ تـكـلـمـ عـنـ مـجـتـمـعـ، فـنـحـنـ نـعـنـ نـشـوـءـ الـمـؤـسـسـاتـ الـتـيـ حـرـمـ مـنـهـاـ السـوـرـيـوـنـ نـصـفـ قـرنـ، مـنـ أـحـزـابـ وـنـقـابـاتـ وـجـمـعـيـاتـ مـدـنـيـةـ حـرـةـ عـلـىـ مـخـتـلـفـ أـشـكـالـهـاـ، بـهـدـفـ أـنـ يـظـلـلـوـاـ أـفـرـادـاـ مـنـفـصـلـيـنـ وـمـتـعـارـدـيـنـ وـشـاكـيـنـ بـعـضـهـمـ بـبـعـضـ، مـتـسـاـوـيـنـ، كـذـرـاتـ الرـمـلـ، أـوـ كـجـسـدـ هـلـامـيـ مـنـ دـوـنـ عـمـودـ فـقـرـيـ يـمـكـنـهـمـ مـنـ الـوـقـوفـ وـالـسـيـرـ. فـيـ عـالـمـهـمـ الـجـدـيدـ الـحـرـ، يـعـيـدـ السـوـرـيـوـنـ تـوـاـصـلـهـمـ الـمـقـطـوـعـ فـيـ مـاـ بـيـنـهـمـ، وـيـتـعـرـفـوـنـ عـلـىـ ذـاـتـهـمـ وـمـنـاقـبـهـمـ وـنـقـائـصـهـمـ أـيـضاـ، وـيـطـوـرـوـنـ وـعـيـاـ أـكـثـرـ مـوـضـوعـيـةـ وـعـقـلـانـيـةـ بـوـجـودـهـمـ الـجـمـعـيـ، وـيـعـرـفـوـنـ أـكـثـرـ فـأـكـثـرـ بـاـخـلـفـاتـهـمـ وـيـسـتـعـوـنـهـاـ وـيـتـمـتـلـوـنـهـاـ، بـلـ يـحـتـفـونـ بـهـاـ، وـيـعـيـدـوـنـ أـيـضاـ تـوـاـصـلـهـمـ الـذـيـ اـنـقـطـعـ مـعـ الـعـالـمـ، وـيـكـتـشـفـوـنـ إـرـادـتـهـمـ الـحـرـةـ وـيـنـسـجـوـنـ عـلـاقـاتـهـمـ الـمـدـنـيـةـ وـالـسـيـاسـيـةـ الـتـيـ مـزـقـهـاـ الـاـسـتـبـدـادـ عـبـرـ آـلـافـ الـجـمـعـيـاتـ وـالـمـنـظـمـاتـ الـأـهـلـيـةـ وـالـسـيـاسـيـةـ وـالـإـنـسـانـيـةـ الـتـيـ تـخـضـعـ لـإـرـادـتـهـمـ، وـيـطـوـرـوـنـ قـدـرـاتـهـمـ فـيـ الـبـحـثـ وـالـتـنـظـيمـ وـالـمـبـادـرـةـ وـالـعـلـاقـاتـ الـدـوـلـيـةـ.

لـمـ يـوـلـدـ هـذـاـ مـجـتـمـعـ بـإـرـادـةـ أـحـدـ، وـلـكـنـهـ كـانـ نـتـيـجـةـ طـبـيـعـيـةـ وـعـفـوـيـةـ لـانـفـجـارـ الـدـوـلـةـ الـقـدـيمـةـ، وـتـطـاـبـيرـ أـشـلـائـهـاـ فـيـ كـلـ الـأـنـحـاءـ. لـقـدـ وـلـدـ فـيـ الـكـارـثـةـ، كـمـاـ وـلـدـ الـشـعـبـ الـفـلـسـطـيـنـيـ فـيـ النـكـبـةـ. وـهـوـ يـسـيـرـ حـتـمـاـ نـحـوـ التـوـاـصـلـ وـالـتـلـاقـيـ وـتـجـمـيعـ الـقـوـىـ وـإـنـتـاجـ وـعـيـ مـوـحـدـ وـمـسـتـقـلـ. وـسـيـكـونـ قـسـمـ كـبـيرـ مـنـهـ جـاهـزـاـ لـلـانـخـرـاطـ فـيـ إـعـادـةـ بـنـاءـ وـطـنـهـ الـأـصـلـيـ وـالـدـائـمـ، سـوـاءـ جـاءـ ذـلـكـ بـمـنـاسـبـةـ اـنـتـفـاضـةـ قـادـمـةـ، أـوـ مـنـ خـلـالـ الضـغـطـ الـمـتـرـاكـمـةـ وـالـمـسـتـمـرـةـ.

كـلـ مـاـ نـحـتـاجـ إـلـيـهـ الـيـوـمـ لـنـسـرـعـ فـيـ اـنـتـقـالـ آـثـارـ هـذـهـ الـثـوـرـةـ الـحـقـيـقـيـةـ إـلـىـ دـاـخـلـ سـوـرـيـةـ الـقـدـيمـةـ وـالـمـتـفـسـخـةـ الـقـائـمـةـ، وـعـلـىـ الرـغـمـ مـنـهـاـ، أـنـ يـعـمـلـ مـنـ تـبـقـىـ عـلـىـ قـيـدـ الـحـيـاةـ الـسـيـاسـيـةـ وـالـفـكـرـيـةـ مـنـ قـوـىـ الـمـعـارـضـةـ الـتـقـلـيـدـيـةـ الـمـاضـيـةـ عـلـىـ تـنـشـيـطـ الـتـفـاعـلـ بـيـنـ

هذه القوى ومساعدتها على تعميق التواصل في ما بينها، وإنشاء الروابط التي تجمع بين الأفراد، على مستوى التجمعات المهنية والجمعيات الأهلية، وال المجالس المحلية، والمؤسسات السياسية والاجتماعية والثقافية. ووسائل ذلك تنظيم الحوارات واللقاءات والندوات التي تجمع السوريين، وربما تطوير نوع من البوصلة التي تعنى بالتوجهات الفكرية والسياسية، وتطلق عبر الإعلام الأفكار الجديدة والمبادرات وتعتمد نتائج التقدم في أي ميدان على الميادين الأخرى. ومن صلب هذا المجتمع الجديد، سوف يولد النظام البديل، بمؤسساته وأساليب عمله وتنظيماته الجديدة، وتطور قيم التعاون والتضامن المطلوبة للارتقاء بسلوك الأفراد ونوعية تطلعاتهم، وتنخلق قوى النظام الجديد.

على الرغم من الكارثة، المجتمع السوري اليوم أكثر قوة وغنى وتماسكا سياسيا مما كان عليه قبل الثورة وال الحرب، حيث لم يكن هناك سوى مؤسسة وحيدة حاكمة ووجهة ومنظمة وسيدة، هي أجهزة الأمن التي يديرها ويشرف عليها سيد مطلق الصلاحية، وكلى السلطة والانتشار. وهذه هي خد عالتاريخ، أو بالأحرى جديته، حيث لا تنفصل القوة عن الضعف، والعكس صحيح. واليوم، وسوريا شبه مدمرة، لا يخطئ عندما نقول إن المجتمع السوري لم يعد يفتقر للقوى الحرة والحياة والنشاطة القادرة على التغيير. ولكنه يفتقر لهذه الروح الجامحة والمحركات التي تخلق الأمل، وتبعث الثقة، وتوحد الإرادة، وتشعل العزيمة، وتقضي على روح الإحباط واليأس الذي يبعث النفور والتنفير المتبادل داخل صفوف قوى الثورة والمعارضة القديمة. ولن نعثر على هذه الروح التي تدفع إلى التعاون والتضامن، والعمل من أجل مشروع وطني مشترك، ما لم نوسع من دائرة اهتمامنا، وننقل محور اهتمامنا من المعارضة المجهضة، ب مختلف تنويعاتها، إلى سوريا ذاتها ومصير السوريين، وننظر في ما وراء التشكيلات الاجتماعية والعصبيات الحزبية والفتوية والطائفية المتفسخة إلى الأفراد المولودين من جديد الذين تحررّوا من ثقافة العبودية، أي ثقافة الأنانية، وشره السلطة والمال، وانعدام الشعور بالمسؤولية الجماعية.

ولن نتمكن من التغلب على روح الهزيمة والخوف والانحلال المجتمعي الذي يجسدّه مبدأ: إنّ سعد فقد هلك سعيد، إلا ببناء ثقافة التضامن والأخوة التي قامت على أفضالها الجمهوريات في جميع البلدان الديموقراطية، بمقدار ما أُسّست لمجتمع الحرية والعدالة والمساواة، وعمقت روح التعاون والتفاهم بين الأفراد، وجعلت خلاص الفرد وضمان حقوقه وحرياته مرتبطين بخلاص المجتمع ودولة الحرية والقانون. والدول والأقاليم التي لا تنجح في إرساء أسس التضامن والتكافل الجماعي تضعف حظوظها كثيرا في بناء أسس التعاون بين الأفراد والمجتمعات، وتفقد الكثير من فرصها للارتقاء بشروط حياة المجتمعات، المادية والمعنوية، وربما بقيت فريسة سهلة للحروب والنزاعات التي لا تنتهي، والتي لا تنتج غير الدمار والموت والخراب، كما هو حالنا اليوم في المشرق الحزين.

المصادر:

العربي الجديد